المحاضرة السادسة
الأسطورة في الأنثربوبوجيا التحليلية

شكلت الأسطورة مادة خصبة لدراسات أدبية ونقدية ولغوية ونفسية واجتماعية وتاريخية ودينية وحضارية وأنثروبولوجية عديدة، و ذلك لغنى مضامينها من حيث القيم والأفكار والرموز، حيث اكتشف فيها وعبرها الباحثون منافذ معرفية مهمة لقراءة مسيرة الإنسان ا ولإنسانية من حيث النشأة والتفاعل الرمزي الديني ا ولدنيوي المادي ا ولتاريخي البشري ا ولطبيعي .وقد يتجلى ذلك عبر عدد من الرموز المادية والمعنوية والسلوكية للإنسان كذات بشرية وتفاعلاته الاتصالية أو الانفصالية مع المقدس ورموزه الإلهية ومع الطبيعة من أمطار ورياح ورعود وبرق ونجوم وقمر وشمس وأنهار ووديان ومغارات وكهوف وجبال شامخة وغيرها من الكواكب ا ولتضاريس ومع الغيلان والسحرة ومع الحيوانات المختلفة سواء الأليفة منها أو المتوحشة ومع الأشياء المادية من حجارة ومعادن. والنباتات والأشجار والغابات ا ولتي شكلت بالنسبة الإنسان مادة خصبة للتفكير وللتأمل في الكون وفي مكوناته البنيوية. وقد أرجع الباحثون المهتمون بموضوع الأسطورة الاهتمام العلمي العديد ومتعدد المعارف ا ولمقاربات بها إلى أسباب مختلفة" منها وجودها في جميع المجتمعات تقريبا، ومنها إيمان مجموعات بشرية بأكملها بها واستنادهم إليها قولا وفعلا ،مما يبعدنا عن أن تك ون مجرد عبث ذهني لا يجدي نفعا، ومنها أنها توفر معطيات عن المجموعة للمجتمع، وكيف يكون ولمؤسساته واحتفالاته وطقوسه ومحرماته قيمه وعلى ماذا تستند ومما تستند السلطة شرعيتها وكيف تتحدد العلاقات بين البشر وعالم الآلهة ا ولأرواح أو الأسلاف وما هي مشمولات كل جنس من ذكر وأنثى في مختلف مراحل حياته ، وهي معطيات قد لا تتوفر في غيرها في المصادر.

1. تعريف الأسطورة:

كل باحث صنع للأسطورة تعريفا خاصا تماشيا ومفهومه لها من حيث ما تحتويه من قيم وعناصر ورموز ما تمثله في المناومة الفكرية و التاريخية والعقائدية للشعب الذي يحتضنها ويعمل على تسيير أو استثمار دلالاتها ورموزها من أجل قول ثقافي أ وديني أو حضاري أو تاريخي أو فلسفي أو معرفي .فلقد ذهب العلماء في هذا الصدد " مذاهب شتى، فمنهم من رأى في الأساطير حكايات في الدين ...ومنهم من ذهب إلى استنباط فلسفة الأولين ...ومنهم من سلك مسلك التشبيه والمجاز ،فقال أن المقاتلة بين الإلهة ليست بمقاتلة حقيقية بل يعبر بها عن تنازع بين عناصر مختلفة مثل الهواء والماء ، والنار ا ولتراب، أو بين عواطف نفسانية مثل الحب والعداوة، ومنهم من قال أن الأسطورة هي التاريخ في صورة متنكرة ...ومن هنا فكل واحد من العلماء اختار نوعا من أنواع الأساطير لم يضع تعريفا جامعا مانعا للأساطير بأسرها.

- الأسطورة هي حكاية أو قصة قديمة أو مجموعة من القصص تعود إلى الزمن القديم، ولكنها لا تكون دائماً قصص حقيقية حصلت على أرض الواقع، ومن الجدير بالذكر أنها تكون متعلقة بأحداث محددة، أو بأشخاص معيّنين، أو بأماكن معينة، وتشبه الأساطير الحكايات الشعبية من ناحية المحتوى، ففيها أشخاص خارقين، وتفسيرات لظواهر طبيعية مختلفة عن الواقع. تنتقل الأساطير من جيل إلى آخر، ويختلف سرد

الأساطير فمنها ما يتم سردها من خلال الشعر أو الروايات المروية شفهياً أو المدوّنة منها، وتهدف معظم الأساطير إلى تقديم درس معيّن أو فقط لتسلية المستمعين أو القرّاء،

- في مفهومها الحديث مصطلح جامع ذو دلالات خاصة يطلق على أنواع من القصص أو الحكايات المجهولة المنشأ ولها علاقة بالتراث أو الدين أو الأحداث التاريخية، وتعد من المسلمات من غير محاولة إثبات، أو هي تصور متخيل عن نشأة أوائل المجتمعات والمعارف في صيغة قصصية شفاهية، وقد تكون الغاية من الأسطورة تفسير بعض العادات أو المعتقدات أو الظواهر الطبيعية، وخاصة ما يتصل منها بالشعائر والرموز الدينية والتقاليد في مجتمع ما.

والأساطير قصص خاصة تروى عن الآلهة أو عن كائنات بشرية متفوقة أو عن حوادث خارقة وخارجة عن المألوف في أزمان غابرة، وقد تتحدث عن تجارب متخيلة للإنسان المعاصر بغض النظر عن إمكان حدوثها أو تسويغها بالبراهين. فالأسطورة تطرح نفسها على أنها جديرة بالثقة وأنها تسجيل لواقعة أو وقائع حدثت وإن شذت عن المألوف، أو أنها أمر واقع ولكنه خارج عن المنطق والمعقول القابلين للمناقشة والبرهان. وقد درج الناس عامة على أن الأسطورة تحكي أحداثاً خارقة يستحيل إثباتها، وجعلوها على هذا النحو مرادفة للخرافة والحكاية.

2. الفرق بين الأساطير والحكايات الشعبية:

لحكايات الشعبية والأساطير هي من الأساليب الأدبية المهمة جداً، وكلاهما ينتشران شفهياً بين الناس، ومع هذا التشابه بينهما إلى أنّ هناك بعض الاختلافات ومنها أنّ الحكايات الشعبية هي فقط حكايات من وحي الخيال ولا علاقة لها بالواقع، أما الأساطير ففيها أحداث خيالية كتواصل الإنسان مع العوالم الأخرى، ولكنها أقل من الحكايات الشعبية، وقد يدعي البعض أنها جزء من التاريخ الواقعي

3. الأسطورة والخرافة:

الأسطورة هي أصل الخرافة وتشبهها إلى حد كبير رغم وجود بعض الاختلاف بينهما ؛فالأساطير هي في الحقيقة مجموعة من الأكاذيب، ولكنها أكاذيب كانت لقرون طويلة حقائق يؤمن بها الناس ولقد ألهمت الأساطير الفنانين والشعراء والأدباء أفكارا خلاقة بل وروائع مدهشة؛ لهذا يجب احترام الأساطير بما فيها من تفاصيل عجيبة رائعة دون النظر إلى مجافاتها للحقيقة أو ما فيها من تناقضات. وتتيح دراسة الأساطير التعرف بمدارك عالم بدائي في ضوء خافت أو ظلال خفيفة غامضة عبر سنين طويلة، وإذا لم نعتبرها سوى رموز شفافة، وحاولنا أن نفسرها بملاحظة العالم الطبيعى المادى فانا نكون قد تجاوزنا دون مبرر حدود الحقيقة الواقعة، وللخيال والهوى نصيب في هذا السرد الطويل للمعتقدات الأسطورية التي اعتنقتها الشعوب القديمة .ونحن لا نجهل أن الأساطير مهملة بعض الشئ في مضمار الأدب، بيد أنه كان لها عصرها من النهضة والحظوة وقد طبعت لغتنا بطابعها الخاص، ولم تزل أبدا كنزا من الأفكار الخلابة والصور الرائعة وليس في سبيل للتاريخ في أن يتغلب على الأقصوصة الخرافية في

مضمار الفن : فالحقيقة الواقعة، مهما كانت رائعة وملهمة فهي مع ذلك محدودة بنطاقها، في حيث أنه لا حدود في معطيات الخيال والإحساس، وهكذا فمهما زادت حصيلة الواقع التاريخي، فإن هذا الواقع لن يكون له أبدا في نظر الفنان والشاعر ماللقصة الخيالية من رحابة وخصوبةوسحر.

4. الأسطورة في التحليل النفسي:

لم تعد الأسطورة مجرد قصة تروى وتشير إلى مغزى غالبًا ما يكون أخلاقيًا، وإنما بدأت تتخطى حدود هذه النظرة البسيطة المباشرة لتتحول إلى مؤشر حضارى يتعامل مع الوجود الإنساني في انتشاره مكانيًا واستمراره زمانيًا. والأسطورة إذا توقفت عند حدود القصة المباشرة التي ترويها تحولت إلى أداة تسلية عابرة تفقد الباعث الأساسي على الاهتمام بها والإبقاء عليها عن طريق التسجيل أو الرواية من جيل لآخر (وهذا أمر حرصت عليه المجتمعات القديمة كل الحرص، ويشهد على ذلك الواقع التاريخي). ومن هنا ارتبطت الأسطورة بالتطور العام للعقل والحضارة الإنسانية عمومًا. والأسطورة بوصفها نتاجًا للخيال والذكاء البشري، من الصعب أن تظل أسيرة إطار جامد، ولكنها تغيرت واختلفت النظرة إليها باختلاف ما حصله الإنسان من معارف فى الزمان والمكان. لذلك فهي

تغطى كل مساحة النفس التى اكتشفها علم النفس الحديث، ومن ثم فهى بمثابة خط حياة وقدر مرسوم. وتمثل الأسطورة تطور هذه النفس وكل الصراعات الداخلية التي تعتلج فيها، مما يجعلها أصلح ما تكون كموضوع درامى أصيل. وفى إطار ذلك، اتجه المحللون النفسيون – وعلى رأسهم «فرويد» – لدراسة الأسطورة دراسة علمية تجريبية، فلم تعد مجرد واقعة منعزلة، بل تم الربط بينها وبين ظواهر معروفة يمكن دراستها دراسة علمية. وتعامل معها «فرويد» معاملة الطبيب لمرضاه (بوصفها ظاهرة مرضية يمكن اكتشاف عللها) من منطلق إيمانه بوجود تماثل بين حياة البدائيين النفسية والمصابين بأمراض نفسية. وكان مقتنعًا – كل الاقتناع – بضرورة البحث عن المفتاح الوحيد للأسطورة فى الحياة الانفعالية للإنسان فحسب، والتي تتعلق بالمظاهر الحركية والميول والرغبات؛ وتعتمد على غريزة أساسية لا يمكن دفعها. لذلك رأى أن ما يتطلبه البحث هو تحديد طبيعتها وخصائصها. لكن «فرويد» لم يعتقد فى إمكانية إرجاع كل الانفعالات إلى علل كيميائية وفسيولوجية، بل رأى مواصلة وصف الظواهر الآلية للانفعالات بأنها ظواهر نفسية؛ مع مراعاة عدم الخلط بين الحياة النفسية والحياة الواعية. فالوعي مجرد جزء صغير من الحياة النفسية، وهو لا يستطيع كشف ماهية هذه الحياة؛ بل قد يخفيها ويحجبها. لذلك، فإن الرجوع إلى اللا وعى يعد خطوة أساسية لمناقشة مسألة الأسطورة ودورها فى حياة الإنسان النفسية. هنا فتح «فرويد» بابًا واسعًا لم يغلق أمام التفسير النفسي للأسطورة، وتابع الرحلة بعده تلاميذه وناقدوه من أمثال «كارل يونج» الذي رأى أن كل المحاولات التي بذلت لتفسير الأسطورة، لم تسهم فى فهمها، بل – على العكس – زادت فى الابتعاد عن جوهرها وزادت من حيرتنا نحوها. وهو يتابع «فرويد» فى النظر إلى الأسطورة بوصفها نتاجا «للاشعور»، لكنه يختلف معه عندما يقرر أن «اللاشعور» – الذي تنتج عنه الأسطورة – هو «اللاشعور الجمعي» الذى يحوى التجارب والأفكار الموروثة من الأجيال السابقة، ويمثل طرائق التفكير البدائى للعقل

الإنساني. درس فرويد «النفس الإنسانية» دراسة علمية، قضى فيها سنوات يعالج المرضى ويجاهد في سبيل الكشف عن أعماق النفس وما تنطوى عليه من أخيلة وأفكار. ورأى أن الشرط الأساسى لكى يفهم الإنسان غيره من الناس فهمًا صحيحًا، هو أن يبدأ بفهم نفسه ويزيل الستار الذى يحول دون إدراك النفس وكشف كنهها. لذلك عقد العزم على أن يجرى على النفس تحليلًا منهجيًا متخذًا من «الأحلام» مادة هذا التحليل. ذلك لأن الحلم – فى رأيه – ليس أمرًا مستقلًا عن سائر أحوال النفس، بل هو يتصل بها أوثق الاتصال ويكون حلقة من حلقات الحياة النفسية. وتكمن خطورته فى أنه يعبر عن أمور لا يسعنا حتى مجرد الشعور بها أثناء اليقظة، فهو يُظهر ما عفا عليه الزمان من الأحداث والخبرات الأولى ويبعثها أمام ناظرنا، فتتضح لنا الصلة بين ماضى الفرد وحاضره، ويستبين ما كان قد استغلق علينا فهمه من أحوال الإنسان. لذلك وصفه «فرويد» بأنه الطريق الأمثل إلى أعماق النفس. رفع «فرويد» «الحلم» إلى مستوى البحث العلمي، حيث كان – فيما مضى – امتيازا للعرافين والمنجمين والمشعوذين؛ وكان يحظى بأهمية كبيرة فى التنبؤ بالمستقبل. لكن العلم الحديث أعرض عن هذا التفسير وأسلمه للخرافة، معلنًا أن الأحلام مجرد عمليات جسمية أو نوع من التشنج يطرأ على الذهن فى حالة النوم، كما اعتبرها أعراضًا عصابية لم تُفسر وأفكارًا هذائية أو وسواسية تتخذ من الصور المنفصلة التى تتكون منها موضوعات لتداعى الخواطر. وجاء التحليل النفسى ووصل إلى نتيجة مغايرة – إلى حد ما – أدت إلى اكتشاف التركيب الذهنى للحالم، ورأى أن الأفكار الكامنة فى الحلم هى المادة اللاشعورية التى وجدت فى النوم فرصة للوصول إلى الشعور. أما الأفكار الظاهرة فيه فهى ترجمة غير مفهومة تقوم بها الأنا بقصد وقاية النفس مما تثيره مادة اللاشعور من قلق وألم. هنا حاول «فرويد» الإجابة عن عدة تساؤلات منها: هل ثمة دافع لتكوين الأحلام؟ ما الشروط التى تحدثها؟ ما الطرق التى تحولت بها خواطر الحلم (التى تزخر دائمًا بالمعنى) إلى حلم (هو فى أغلب الأحيان لا معنى له)؟ إن الأحلام – كما رأى «فرويد» – التي يعرفها كل إنسان، قد تكون مشوشة غير مفهومة ولا معنى لها إطلاقًا، وقد يكون مضمونها مناقضًا للواقع الذي نعرفه؛ وقد نتصرف فيها كما يتصرف المجنون أو الرجل البدائى أو الطفل الصغير. وذلك لأننا نقوم فى الحلم بخلع صفة الحقيقة الواقعية على مادة أحلامنا، ويمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الحلم الذى نتذكره بعد اليقظة ليس هو عملية الحلم الحقيقية؛ لكنه ستار تختفى وراءه تلك العملية. لذلك ميز «فرويد» بين مادة الحلم الظاهرة، وأفكار الحلم الكامنة، وعرَّف العملية التى تخرج مادة الحلم الظاهرة من أفكار الحلم الكامنة بـ «عمل الحلم» الذى هو – فى جوهره – صياغة للعمليات الفكرية اللاشعورية.

4. علاقة الحلم بالأسطورة:

هناك تشابه فى آلية العمل بين الحلم والأسطورة، وتشابه الرموز لكليهما؛ فهما نتاج العمليات النفسية اللاشعورية. ففي الأسطورة – كما فى الحلم– نجد الأحداث تقع خارج حدود الزمان والمكان، والبطل (كذلك صاحب الحلم) يخضع لتحولات سحرية ويقوم بأفعال خارقة، هي انعكاس لرغبات وأمانٍ مكبوتة، تنطلق من عقالها؛ بعيدًا عن رقابة

العقل الواعي الذي يمارس دور الحارس على بوابة اللاشعور. وبعض العناصر فى الأحلام تحتفظ بمعناها الدائم، وتئول كرموز ذات معانً ثابتة تزودنا بفهم عميق لنفس الإنسان الخافية ورغباته المكبوتة. وهذه الرموز ليست مقصورة على الأحلام، بل هى موجودة فى الأساطير والأدب الشعبي والدين والفن وفى عدد كبير من المجالات.

وفى هذا الإطار يقول «فرويد»: «إن مفهوم الرمز ليس خاصية من خواص الأحلام، بل من خواص التفكير اللاشعوري، ونجدها في أغاني الشعب وأساطيره ورواياته المتوارثة، وفى التعبيرات الدارجة والحكم المأثورة والنكات الجارية أكثر مما نجدها في الحلم». إذن، يستخدم الحلم الرموز الموجودة – من قبل – فى التفكير اللاشعوري، وهو يستخدمها لأنها تفلت عادة من رقابة العقل الواعي.